من يصنع العنف في لبنان؟

فايز سارة (*)

تؤكد العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخ لبنان على ان العنف كان سمة مميزة للتاريخ اللبناني في تلك العقود، حيث شهد لبنان خلالها حلقات متواصلة من العنف، لا تكاد واحدة تنتهي الا وتبدأ واحدة اخرى، وهكذا عاش اللبنانيون دواراً متواصلاً من العنف، ما زالت بعض حلقاته تلف حياتهم، وتهدد مستقبلهم.

وتقود حقيقة تواصل حلقات العنف الى سؤال أساسه: من يصنع العنف في لبنان؟ وما هي الأسباب المباشرة والكامنة التي جعلت من اللبنانيين ضحايا للعنف، وجعلتهم كلهم او بعضهم في بعض الاحيان أدوات للعنف؟

وبصورة أساسية، لا يمكن فصل دورات العنف في لبنان عن العامل الاسرائيلي الذي له تأثيرات متداخلة وعميقة في الواقع اللبناني، ليس فقط بسبب وجود اسرائيل على الحدود الجنوبية للبنان، بل ايضاً بسبب قيام اسرائيل باحتلال اراض لبنانية خلال أول الحروب العربية - الاسرائيلية في العام ١٩٤٨، والقيام بضمها الى الدولة العبرية، وقد أسس ذلك لعداء لبناني لإسرائيل، يكاد يكون منفصلاً عن عداء اللبنانيين لإسرائيل بسبب الاستيلاء على فلسطين، وتشريد أهلها على الرغم من صعوبة هذا الفصل.

واضافة الى هذين العاملين في تأسيس عداء اللبنانيين لإسرائيل، فإن هناك عاملين آخرين، يتمثل الأول منهما في الاطماع الاسرائيلية في لبنان ولا سيما في مياهه، وهو أمر تكرس في خرائط نشرتها بصورة مبكرة الحركة الصهيونية لحدود مشروعها الاستطاني، تضم اجزاء من لبنان، والعامل الثاني، تجسده التدخلات الاسرائيلية في الشأن اللبناني والمراهنة على العلاقة مع أطراف لبنانية في تشظية لبنان واقامة كانتونات طائفية فيه، تدور في الفلك الاسرائيلي.

وإذا كان العداء اللبناني لإسرائيل قد تأسس على العوامل السابقة، فإن الممارسات الاسرائيلية حيال لبنان، عمقت قاعدة العداء وبخاصة بعد حرب العام ١٩٦٧، وما تركته من صلف وتعنت اسرائيلي وإحساس بأن القوة وحدها هي التي ترسم مستقبل المنطقة، وتنظم علاقات اسرائيل مع العرب ودولهم، وهو ما ظهر واضحاً جلياً في تدخلات القوة الاسرائيلية المسلحة في لبنان اعتباراً من العام ١٩٦٨ من اجل تدمير التوجهات الفلسطينية - اللبنانية المعادية لإسرائيل، التي أخذت تظهر في بداياتها رداً على نتائج حرب عام ١٩٦٧.

لقد أسست هذه التطورات الى تنامي وتشعب العنف في لبنان، وقد كانت بداياته أعمالاً عسكرية من جانب القوات الاسرائيلية رداً على نشاطات محدودة للفلسطينيين وأنصارهم اللبنانيين في الجنوب، ثم امتدت العمليات الاسرائيلية لتصير أكثر عنفاً واتساعاً بالامتداد الى انحاء لبنان الاخرى، ولا سيما العاصمة بيروت التي شهدت عام ١٩٦٨ هجوماً مدمراً على مطارها، جرى خلاله تدمير الاسطول الجوي التجاري للبنان.

لا يمكن فصل دورات العنف في لبنان عن العامل الإسرائيلي وقد أسس ذلك لعداء لبناني لإسرائيل يكاد يكون منفصلاً عن احتلال فلسطين

لقد كانت تلك التطورات تتواصل عبر اشارات تبثها اسرائيل الى أطراف لبنانية، بأنها سوف تقف الى جانبها فيما لو اندلعت صدامات داخلية ناتجة عن الاختلاف اللبناني حول القضية الفلسطينية وحق الفلسطينيين بالنضال ضد اسرائيل انطلاقاً من لبنان، ومهدت تلك الاشارات لصدامات لبنانية لبنانية، واخرى لبنانية - فلسطينية أندلعت في الجنوب وفي بيروت، ومنها كانت حادثة عين الرمانة، والتي كانت اشارة بدء الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، فاشتعلت الحرب في كل انحاء لبنان لتشمل اللبنانيين والفلسطينيين جميعاً، وتمد يدها الى السوريين ايضاً، فيما كانت اسرائيل مستمرة في اعمالها العسكرية في الجنوب، وهو أمر ترافق مع فتح خطوط العلاقة بين اسرائيل وجماعات لبنانية، ما لبث قسم منها ان أسس له وجوداً عسكرياً شبه منفصل بالرعاية الاسرائيلية في القسم المحتل من الجنوب، وهو ما تحول لاحقاً الى جيش لبنان الجنوبي الذي يقوده حالياً أنطوان لحد.

لقد سلحت اسرائيل «القوات اللبنانية» ودربتها، وأمنت لها غطاءً سياسياً على مدى سنوات السبعينات، مهدت خلالها من خلال عنف واسع شمل لبنان بمناطقه وطوائفه، لتغليب القوات اللبنانية الوثيقة الصلة بإسرائيل وايصالها الى السلطة بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان صيف عام ١٩٨٢، فتم انتخاب بشير الجميل قائد القوات اللبنانية، وأحد أبرز رموز العنف في لبنان كله رئيساً للجمهورية اللبنانية بحماية الدبابات الاسرائيلية، وفي ظلها وبمساعدتها ارتكبت القوات اللبنانية المجزرة الدموية في صبرا وشاتيلا ببيروت في ايلول ١٩٨٢ تكريساً للعنف الدموي الداخلي في لبنان وفي أوساط المقيمين على أرضه، وقتل في تلك العملية عشرات من الفلسطينيين واللبنانيين.

لقد جلب الاحتلال الاسرائيلي للبنان أطرافاً كانت بعيدة كل البعد عن مستنقع العنف اللبناني، عندما تم جر القوات المتعددة الجنسيات الى هذا البلد لفرض املاءات سياسية وأمنية عليه، وقد نشط بعضها في شن عمليات عسكرية ضد أطراف لبنانية، ما تسبب في ردة فعل عنيفة ضد المتعددة الجنسيات، فكانت العمليات المعروفة ضد القوات الفرنسية والأميركية، وكان ذلك بين عوامل دفعت الى مغادرة المتعددة الجنسيات لبنان، كما كانت العمليات النوعية ضد القوات الاسرائيلية سبباً في إعادة انتشارها عدة مرات بالانسحاب جنوباً.

وإذا كانت الجهود المختلفة لمعالجة الوضع اللبناني، قد أثمرت في الحد من مستوى العنف الداخلي في لبنان بعد اتفاق الطائف، وما حمله من صيغ توافقية للبنانيين، واستعادة الدولة اللبنانية، فإن خط العنف في الجنوب اللبناني استمر بالرعاية والممارسة الاسرائيلية، حيث ان اسرائيل رفضت الانسحاب من جنوب لبنان، وهو ما يوفر قاعدة للعنف، ترد به اسرائيل على عمليات المقاومة للاحتلال الاسرائيلي، بل ان قاعدة العنف التي توفرها اسرائيل في الجنوب، تتعدى وجودها نفسه الى الإصرار على وجود الميليشيات العميلة لها في الجنوب وضرورة أخذها بعين الاعتبار في أي تسوية تحدث مع اسرائيل على المسار اللبناني.

وإذا كان الوجود والسياسة الاسرائيلية في لبنان وجنوبه بخاصة، يوفران قاعدة للعنف الواسع والمتعدد الابعاد، فان تلك القاعدة، تعطي الاحتلال فرصة مد ظلال العنف خارج المناطق المحتلة من لبنان، بضرب التجمعات والأهداف المدنية بما فيها البنى التحتية والاقتصادية، كما انها في آن معاً، تكرس تواصل العنف بين اللبنانيين بالإصرار على استمرار الميليشيات العميلة بوجودها ودورها في الجنوب.

وبطبيعة الحال، فإن مساعي اللبنانيين للتخلص من الاحتلال وتصفية ظاهرة عملائه في الجنوب، يكرسان المساعي اللبنانية للخلاص من العنف، وإخراج لبنان من أتونه، وهو ما يمكن ان يتوفر بصورة عملية عند خروج القوات الاسرائيلية من لبنان طبقاً للقرار الدولي ٤٢٥ وهو ما يقطع دابر العنف، ويخرج لبنان من دائرته بصورة نهائية.

(*) كاتب من سوريا